الكتابة الروائية وتجربة اللغة الصوفية
(رواية التجليات لجمال الغيطاني نموذجا)

الدكتور وذنـاني بوداود
جامعة عمار ثليجي الأغواط - الجزائر

تمهيد :

نحاول في هذا الموضوع المتواضع الوقوف على علاقة الخطاب الروائي العربي, باللغة الصوفية ، والكشف عن إستراتيجية الخطاب الروائي الذي يستعمل اللغة الصوفية ، تلك اللغة التي تؤسس لخطاب الاختلاف . ومن البداية تجب الإشارة إلى أن هذه الدراسة لا تدعي لنفسها الإحاطة بكل شيء ، أو أنها تدعي تقديم قراءة تحيط بخفايا النص ظاهرا وباطنا . وإنما هي محض اجتهاد قد يصيب وقد يخطئ ، قد يلامس حقيقة النص وقد يبتعد عنها . لذلك فهي تقف عند محطات بعينها تحاول أن تقيم مقاربة للنص في حدود ما يسمح به من بوح بأسراره لأن النص الأدبي ، ومهما كان جنسه لا يبوح بأسراره بسهولة ، وعلى ضوء ما قلناه نحاول مقاربة نص [رواية التجليات] لجمال الغيطاني بوصفه عملا متميزا يمتح من الخطاب الصوفي لغته ورموزه قصد بعث نص روائي يتوشح بوشاح الصوف .

السرد الروائي وسحر اللغة :

لا يختلف اثنان في حقيقة أن اللغة هي المادة الأساسية في العمل الأدبي ، وأنه بدونها لا يمكن أن تقوم له قيامة ، ومن ثم كان أصعب إشكال يواجهه الأديب هو لغة الكتابة , فهو يحاول دائما أن يمنح ألفاظه دلالات جديدة تعطي لما يكتبه بعدا معرفيا وجماليا يتعدى الماثل إلى فضاءات كونية بعيدة العمق في الذات الإنسانية .

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن العمل الروائي هو أكثر من غيره إحساسا بأهمية اللغة نظرا لتعدد أصواته ومشاهده ، فلعل (اللغة السردية التي يختارها السارد لروايته أن تكون من أشق التقنيات وأعسرها مراسا , وأبعدها إدراكا) 1 وبما أن العمل السردي تتقاطع ضمنه الواقعي و الخيالي ، فإن اللغة هي الوحيدة القادرة على بناء عوالمه الخيالية ، (فليست اللغة في العمل الأدبي مجرد أداة لنقل وتوصيل الصور والدلالات والمضامين إلى وجدان المتلقي وذهنه .... بل هي جزء عضوي من بنية هذا العمل نفسه .)2 والأكثر من ذلك أن النص الأدبي هو الميدان الذي تمتحن فيه اللغة ، وتسبر أغوارها ، و حتى تؤدي دورها كاملا لا بد لها و أن تتحلى في كامل زينتها . وعليه فجمال العمل الروائي لا يتحقق إلا من خلال لغة جميلة ساحرة ، لأن(السحر اللغوي إذا غاب عن العمل الروائي ، غاب عنه كل شيء : غاب الفن ، وغاب الأدب معا)3 . ، فاللغة التي تشع سحرا هي اللغة التي تأسر المتلقي وتشده .

وفي سياق علاقة العمل الروائي باللغة تبرز رواية التجليات لجمال الغيطاني من بين كل الأعمال الروائية العربية ، كنص روائي يقوم على أسلوب جديد في الكتابة لم تألفه الرواية العربية من قبل ، أسلوب يتجاوز تلك التقنية المعروفة في الرواية التقليدية , والمتلقي لهذه الرواية يلاحظ أن اللغة المستعملة ليست هي اللغة المألوفة في الرواية العربية ، وإنما هي لغة والمشاعر الروحية أي لغة الآخر الصوفي .

إشكالية اللغة الصوفية :

إذا كنا نتفق على أن المعرفة الصوفية تعتبر من بين الروافد المعرفية الهامة ، التي أثرت تأثيرا كبيرا في النسق الثقافي العربي الإسلامي ، لما تحمله من حمولة معرفية فكرية ، ضاربة الجذور في الفكر الإنساني . فإننا لا بد وأن نتفق على أنها شكلا معرفيا مغايرا لما هو قائم من أنساق معرفية أخرى . وبما أنها كذلك فقد أفرزت خطابا يتقاطع مع الفكر الذي ألفه المتلقي في المنظومة الثقافية السائدة , خطاب يؤسس للاختلاف. لأنه (يعالج مسائل يستعصي على العقل غير المؤيد بالذوق أن يدركها ويستعصي على اللغة غير الرمزية أن تفصح عن أسرارها)4 وبذلك كان خطابا تنعدم فيه الحركة التواصلية لأن الإستراتيجية التي يقوم عليها تتأسس على العلاقة التي تقوم بين الصوفي والله ، وبذلك فهو خطاب يسير في اتجاه عمودي [الصوفي / الله] خطاب يتعارض ، إن لم نقل يتناقض ، مع كل الخطابات الأخرى . مما نتج عنه بروز أنساق معرفية تنعدم فيها الحركة التواصلية لانعدام وسيلة التبليغ فيها .

وخطاب على هذه الشاكلة لا بد وأن يحدث لدى الآخر غير الصوفي إشكالية في الفهم ، فالصوفي وإن كان يستعمل نفس اللغة التي يستعملها الفقيه والمحدث واللغوي والمتكلم والأديب إلا أنه (عمد إلى تحويل دلالاتها الطبيعية إلى دلالات مغايرة تقوم على أسلوب الإشارة والرمز)5 وبهذا الفعل استطاع أن يجعل من مشكلة الدلالة اللغوية سلما لبلوغ ما يريد الوصول إليه . بحيث نقل اللغة من فضائها الواقعي المعيش ، إلى فضاء روحي غيبي، وبفضل اجتهاداته المتواصلة استطاع أن يتجاوز مدلولاتها الظاهرة ومصطلحاتها المتداولة ، وإذا كان الأمر على هذه الشاكلة فكيف يمكن للمبدع أن يتعامل مع هذا الخطاب ويستفيد من مكنوناته المعرفية ؟

والملاحظ أن اللغة الصوفية تثير الدهشة بغموضها وسحر تعابيرها , لأن منبعها القلب (فالقلب عند الصوفية هو محل الكشف والإلهام وأداة المعرفة والمرآة التي تتجلى على صفحاتها معاني الغيب)6 .

ومن هنا كانت مقاربة المعرفة الصوفية بواسطة العقل تعد مغامرة غير مأمونة النتائج لأن المعرفة الصوفية تتم عن طريق البصيرة الكاشفة التي منبعها القلب . و (علوم المكاشفة أو الإلهام هي مما لا يمكن ترجمته إلى جمل ومفاهيم عقلية ومنطقية)7 فعلم الأذواق لا يؤخذ من الأوراق وقد نقل عن بعض مشايخ التصوف قوله لبعض مريده (إياك وطلب الدليل من خارج , فتفتقر إلى المعارج . أطلب الحق من ذاتك لذاتك , تجد الحق أقرب إليك من ذاتك) 8 ومعرفة بهذه الشاكلة لا بد وأن تكون فيها وسيلة التبليغ معقدة ، فعملية التبليغ وكما هو معروف لا بد أن يتوفر فيها شرطان ضروريان هما:

1- خاصية التواصل : بحيث تكون لغة الباث والمتلقي واحدة .

2 - أن تكون معاني وأفكار الخطاب مما يدركه العقل المتلقي .

ومن هنا يظهر الفرق الواضح بين اللغة الصوفية ، واللغة الأدبية ، فالأولى لغة كونية خاصة بفئة أما الثانية فهي لغة التخاطب والتواصل وتداول لأنها لغة طبيعية متعارف عليها بين الناس ، لذلك نجد أن من مشايخ التصوف من يؤكد على أن لغة التصوف ، هي لغة خاصة بالمتصوفة لا تتعداهم إلى اللآخر لأنها لغة ذوقية وليست لغة عقل . ومن هنا نشأ التناقض وعدم الانسجام بين اللغتين ، فاللغة العادية الطبيعية (تقول الأشياء كما هي ، بشكل كامل ونهائي ، بينما الصوفية لا تقول إلا صورا منها ، ذلك أنها تجليات المطلق ، تجليات لما لايقال ، ولما لا يوصف ، ولما لا تتعذر الاحاطة به . فما لا ينتهي لا يعبر عنه إلا ما لا ينتهي)9 ومن هنا تتضح خاصية اللغة الصوفية بأنها لغة كشف وغيب وأسرار وبذلك تتجاوز مفاهيم اللغة الطبيعية المتعارف عليها .لأن الصوفي يعمل دائما على البحث في باطن الكلمة قصد إيجاد معنى خفي لا يهتدي إليه العامة (العامة في عرف المتصوفة هم غير المتصوفة) وبذلك يزيح عن الكلمة معناها الظاهري ويلبسها معنى آخر باطني يصعب فهمه من طرف الآخر غير الصوفي . فاللغة في نظر الصوفي يسكنها الاختلاف والإشكال , لذلك عمل على إخراج اللغة عن طبيعتها المعهودة بين الناس وجعل منها لغة أخرى لا يفهمها إلا هو , مما أحدث تشويشا معرفيا في اللغة لا يمكن التخلص منه بسهولة ,(إنه يضع الكلمات في فضاء لم تعهده ، ومن هنا يخلق بها جمالا غير معهود)10. فمن

خلال اللغة الكثيفة المرمزة المشفرة يقيم الخطاب الصوفي أولى آليات التعارض والتضاد مع أشكال المعرفة الأخرى سواء كانت دينية شرعية أو غيرها . الصوفي قد وجد أن اللغة الطبيعية لا تساعده في التعبير عن ما يريد الوصول إليه من خلال المعرفة التي يريد تأسيسها لأن اللغة الطبيعية هي نتاج العقل وجدت أصلا للتعبير عن المحسوسات ، ولغة بهذه الصفة لا يمكنها أن تساعده في التعبير عن الأسرار الكونية الخفية

فالصوفي هو فان عن ظاهره حي في باطنه ، وبما أنه كذلك كان إلزاما عليه أن يتجاوز لغة الظاهر . فالمعنى الذي يسكن اللفظ في اللغة الصوفية ، مغاير للمعنى الذي يسكن اللفظ في اللغة الطبيعية ، أي أن اللفظ الصوفي يحمل معنى يصدم المتلقي ويشوش عليه الفهم ، لأن العلاقة التواصلية في الخطاب الصوفي متذبذبة متناقضة . وسبب ذلك أن اللغة الصوفية (هي تلك اللغة الإشراقية التي غلب عليها الفيض النوراني والمواجيد والشطح والسكر)11 فالمقولات الروحية التي أسس عليها مشايخ التصوف معرفتهم هي مقولات ذوقية باطنية ، وهي بذلك لا تتلاءم مع لغة عالم الحس والمشاهدة ، وحذروا من تلك اللغة .(فإياك أن تقف مع اللفظ القصير فتسحر به عن المعنى العريض ، فإن اللفظ للعامة والمعنى للخاصة .)12

وبذلك فرض الخطاب الصوفي آليات جديدة على المتلقي قللت من المسافة بينهما ، بحيث أصبح المتلقي غير الصوفي لا يستطيع أن يتمثل المعنى بسهولة ومن هنا كانت العلاقة التواصلية في هذا الخطاب متذبذبة متناقضة لا تستقر على مفهوم واضح . يقول القشيري (أعلم أن لكل طائفة من العلماء ألفاظا يستعملونها

، وقد انفردوا بها عمن سواهم ، كما تواطؤوا عليها لأغراض لهم فيها ، من تقريب الفهم على المتخاطبين بها ، أو للوقوف على معانيها بإطلاقها ، وهم يستعملون ألفاظا فيما بينهم ، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم ، والستر على من باينهم في طريقتهم ، لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب ، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها ، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع من التكلف ، أو مجلوبة بضرب من التصرف ، بل هي معان أودعها الله تعالى في قلوب قوم واستخلص لحقائقها أسرار قوم)13 فالنص السابق يبين عدم تواصلية اللغة الصوفية مع الآخر غير الصوفي ، لذا كان على من يريد استخدام اللغة الصوفية ، أن يفهم أولا الذات الصوفية لأنها مصدر تلك اللغة .

الرواية العربية واللغة الصوفية :

يلاحظ المتتبع لمسار الرواية العربية بأن الانجذاب نحو اللغة الصوفية بدأ مبكرا ففي رواية [اللص والكلاب] لنجيب محفوظ نجد أن السارد يحاول ملامسة تلك اللغة من خلال شخصية الشيخ علي الجنيدي بحيث يستنسخ بعض النصوص من أقوال الصوفية كرابعة العدوية , وقد عمل نجيب محفوظ على توسيع هذا الفعل في رواية [ليالي ألف ليلة] عند ما قام بنقل نصوص صوفية على لسان الشيخ عبد الله البلخي وهي من أقوال مشايخ التصوف كابراهيم بن أدهم وأبي يزيد البسطامي , ونظرا للتجربة الكتابية الإبداعية التي يتميز بها نجيب محفوظ ، فإن المتلقي لا يشعر بأن هناك تمايز بين اللغة السردية واللغة الصوفية في هذا النص الروائي .

وما يقال عن نجيب محفوظ يقال عن الطيب صالح ففي روايته [مريود] نجده يعمل على محاكاة اللغة الصوفية داخل خطابه الروائي من خلال أقوال الشيخ نصر الله ود حبيب ومريده بلال .

وفي اعتقادنا أن هذه الأعمال السردية هي التي مهدت الطريق للغيطاني لولوج فضاء اللغة الصوفية بفضل مطالعاته للتراث الصوفي وخاصة كتابات الشيخ ابن عربي والنفري .

وعلى الرغم مما يلاحظ من تباعد كبير بين التجربة الصوفية والتجربة الروائية ،فإن الذي يتعمق في طبيعة كل منهما ، سيجد بأن هناك تقارب بينهما. وعليه فطبيعة الخطاب الصوفي وما يحمله من إحساسات إنسانية ، وكشف عن معاناة الذات البشرية وهي تتعلق بتلابيب الحب قصد الوصول إلى الارتواء من ذات المحبوب ، وكذا طبيعة الرواية التي تحاول رصد حقيقة الإنسان في الوجود بطريقة أو بأخرى ، فإن كل ذلك يجعل المسافة بينهما قصيرة ، فكل من الصوفي والروائي يسعى للوصول إلى الحقيقة ، الحقيقة الكونية المطلقة بالنسبة للصوفي ، وحقيقة الوجود بالنسبة للروائي ، وأن كلا منهما يحاول أن يقدم للذات الإنسانية ما ينفعها في وجودها ، فكلاهما يشارك الإنسانية في همومها محاولا التخفيف من تلك الهموم . لذا جاء توظيف التراث الصوفي من طرف الروائي العربي ، و بعثه من جديد بكل ما يحمله من معرفة روحية ، رمزية غيبية لفتح بصيرة المتلقي على الحقائق الكونية ، دون الإخلال ببنية النص الروائي.

جمال الغيطاني و اللغة الصوفية :

لقد استفاد الغيطاني كثيرا من قراءاته للمدونات الصوفية , مما مكنه من إبداع نصوص تتقاطع مع تلك النصوص الصوفية وأكبر دليل على ذلك [كتاب التجليات] وهو خطاب لا ينفتح بسهولة على المتلقي نظرا لما يحمله من إشارات ورموز يصعب فك كنهها ومعرفة مقاصد معناها ، نظرا لقوانينه واستراتيجيته المعقدة التي تميزه عن غيره من الخطابات الروائية الأخرى ، لذلك يحتاج إلى فهم خاص للوقوف على خلفياته المعرفية وآليات بنائه , وهو ما يتطلب من المتلقي فهم الإستراتيجية التي يقوم عليها الخطاب الصوفي أولا لكي يتمكن من فهم مقاصد الغيطاني .

إن انجذاب الغيطاني إلى عالم التصوف يعرب عن حقيقة مفادها أن الروح الصوفية المتمردة على المألوف والمتعالية على الواقع المعيش لا زالت ترسم المشهد الحياتي للذات العربية ، مادام الزمن العربي يعيش الظلم والتسلط والقهر وإقصاء الآخر . فقد استطاع الغيطاني بفضل استلهامه للمعرفة الصوفية أن ينسج نصا معرفيا متميزا ، يؤسس لوحدة المتناقضات [الظاهر/الباطن]. التي يتأسس من خلالها الخطاب الصوفي . وأن معايشته الطويلة للتراث الصوفي جعلته يدرك مدى العلاقة التي تربط بين المعرفة الصوفية - وما تحمله من أبعاد روحية وإنسانية - والسرد الروائي و يحمله من هموم إنسانية ، فكلاهما يعمل على نقل معاناة الإنسان . وبذلك لم تعد الصوفية عند الغيطاني (ذلك الشطح الذي تتدفق به النفس مرتعدة ، هيابة إزاء الحضرة ، تنغمس في نوع من الاستلذاذ بعشرة الأولياء والعارفين ، إنها لا تحدث بحديث ، الكرامات والخوارق

وإنما هي موقف ، وجهة نظر ، ولنسمها أيديولوجية مبتكرة تتوخى خلاصا لإنسان معاصر يطوقه الشقاء من كل جانب)14

فمن خلال هذه الرؤية الفنية تمكن الغيطاني من اقتحام عوالم الخفاء والغيب وما وراء الواقع ، عوالم خارجة عن سلطة الزمان ، ومحدودية المكان . فجاءت تجلياته عبارة عن رحلة معراجية خيالية متأثرة بالمعراج الروحي لدى الصوفية. وخاصة الشيخ ابن عربي في كتابه [الاسرا إلى مقام الاسرى] .

فـ(قدم لنا في تجلياته عملا إبداعيا حقا ، يمتح من أعرق مصادرنا التراثية ، ويتضمن موقفا إيجابيا مع هذا من حقائق واقعنا المباشر الحي .)15 فتعامل الغيطاني مع التراث الصوفي ، لم يكن من أجل إظهار مقدرته الإبداعية ، بل كان من أجل كشف الواقع المعيش وتعرية سلبيات الحاضر ، لأن الحاضر في نظره لا يقوم إلا على أسس متينة من معرفة الماضي . ولمعرفة الماضي في نظره لابد من بناء عالم خيالي يتشاكل مع العالم الصوفي ، ذلك العالم السحري العجائبي ، ولكن تلك العجائبية التي يتلذذ بها المتلقي لا يمكنها أن تخفي ذلك الهم الإنساني ، وحتى تتم السيطرة على مجريات الأحداث بين ما هو سحري وعجائبي ، وبين ما هو واقعي، لابد من استعمال لغة خاصة ، تتوافق المقاصد المرجوة من النص ، لذلك لجأ الغيطاني إلى اللغة الصوفية لأنها في نظره هي الأقدر على رسم ملامح ذلك العالم العجائبي ، ولذلك فهو من البداية يستدرك الصعوبة التي يمكن أن يواجهها المتلقي لذا نبهه ، على عادة الكتاب القدماء (هذا كتاب لا يفهمه إلا ذوو الألباب ، وأرباب المجاهدات .)16 فزعم الكاتب بأن ما يسرده في نصه يحتاج

إلى معرفة خاصة على عادة المتصوفة ، معرفة تتجاوز معرفة العقل إلى معرفة الباطن .

ولكي يحدث الانسجام بين السرد الروائي ، واللغة الصوفية ، وضع المتلقي من البداية في دائرة الانجذاب التصوفي ، (وفجأة ، عند ساعة يتقرر فيها الفجر ،صاح بي الهاتف الخفي)17 فالقصد من هذا البوح كان لإزاحة اللبس عن ذاكرة المتلقي ، فحال السارد ، في هذا النص ، تتماهى مع حال السالك الصوفي لحظة مواجهته للهاتف الغيبي . ومن هنا لم يصبح السارد مجرد سارد أو راو , بل أصبح هو مفتاح الكشف والتجلي .18

إن بلوغ مقام التجلي هو حلم الذات باختراق الحجب لبلوغ درجة معرفة حقيقة ما يجري في الكون والحياة ، و ما يجري في باطن و ظاهر الأشياء . فالسارد في هذا النص يحاول أن يتعامل مع الباطن والمضمر الخفي ، مثل ما يتعامل معه الصوفي ، حتى يتمكن من النفاذ إلى عمق الأشياء لرسم مشهد الحياة من عالم المخيلة ، فهو يمارس الرؤيا من الداخل ، يمارس الكشف الذي يعني في عرف المتصوفة (بيان ما يستتر على الفهم فيكشف عنه للعبد كأنه رأي عين)19 وبهذا الفعل يكون الغيطاني قد تجاوز طرائق السرد المتعارف عليها وأرسى دعائم أسس سرد جديد يتلاءم وأحداث ذلك العالم العجيب الغريب المتوهم الذي يتقاطع مع عالم المتصوفة ، الذي استمد منه لغة نصه .

و الملاحظ في تجليات الغيطاني أن اللغة الصوفية قد مارست هيمنتها الكلية على السارد بداية من عنوان الرواية وانتهاء بالعناوين الجزئية , فعناوين

مثل [تجلي وسفر وحال ومقام] والتي تعد المفاتح الأساسية للغة الصوفية ، قد كانت الأساس الذي أقام عليه الغيطاني بناء عمله ، الروائي مما يدل على انجذابه نحو اللغة الصوفية ، التي بهرته بسحرها الكامن في أسرار ألفاظها .

فسحر تلك اللغة يتجلى للمتلقي بداية من عنوان الرواية [كتاب التجليات الأسفار الثلاثة] المستنسخ من عناوين الشيخ ابن عربي , ويمكننا أن نذهب إلى أن الكاتب كان يعول في عمله على العنوان لأهمية , ففقهاء الأدب يؤكدون على مدى أهمية العنوان بالنسبة للكاتب فدلالاته تفضي إلى مكنونات النص . فكلما كان العنوان جذابا ، كلما كان تأثيره أقوى في الملقي. وأن التحكم في العنوان معناه التحكم في مسارات النص , لذا فإن الغيطاني باختياره للعنوان على الكيفية التي جاء عليها يكون قد وضع المتلقي في حيرة من أمره لما أحدثه لديه من مفاجأة بسبب غموضه ، فهو عنوان إشكالي يضع المتلقي أمام متاهات لا يخرج منها بسهولة ، والحق يقال أن الغيطاني قد اعتمد إستراتيجية ذكية من أجل التأثير في المتلقي ، وشد انتباهه ودفعه إلى بذل الجهد لمعرفة مقاصد النص .

فالعنوان السابق يضعنا مباشرة أمام إشكالية التأويل لأننا نجد أنفسنا وجها لوجه أمام مصطلحات هي من صلب المعرفة الصوفية , فالكاتب باختياره لمثل هذا العنوان أعلن صراحة عن تمرده عن ما هو مألوف في الكتابة الروائية والقصصية ، و أكد دخوله في مغامرة جديدة مع المصطلحات الصوفية . فالعنوان مستنسخ من كتابين للشيخ ابن عربي وهماكتاب [كتاب التجليات] و كتاب [كتاب الأسفار] ومعنى ذلك أن الغيطاني حاول أن يجرب في نصه تقنية الكتابة الصوفية لعلها تنير النص الروائي وتعطيه جمالا و أبعادا رمزية قد لا

تتوفر له بدون التماسها في الكتابة الصوفية وخاصة مؤلفات الشيخ ابن عربي . و عليه فكلمة [كتاب] (هي مشدودة إلى تقليد كتابي تواتر في عناوين مصنفات بعض الصوفية نذكر منها (كتاب المواقف والمخاطبات) للنفري ، و(كتاب التجليات) و(كتاب الأسفار) لإبن عربي)20 و هي عناوين تنتسب إلى نسق ثقافي عرف برمزيته وتجاوزه لما هو مألوف ومتداول بحجة امتلاك الحقيقة الباطنية التي تخول لصاحبها النفاذ إلى عمق الأشياء والكائنات لأنها معرفة موصولة بالخالق .

فالفلسفة التي يعتمدها الغيطاني في وضع العناوين مستمدة مباشرة من فلسفة الشيخ ابن عربي في وضع عناوينه , فهو مولع مثله بكثرة العناوين إلى درجة كبيرة ، وعندما نقارن بين العناوين التي وضعها الشيخ ابن عربي لرسائله وعناوين الغيطاني في تجلياته نجد أن هناك تناسخا كبيرا فيما بينها حيث نجد أن جل عناوين الغيطاني مأخوذة من عناوين الشيخ ابن عربي ، وبهذا الصنيع يكون الغيطاني قد خرج في تجلياته عن المألوف في وضع العناوين . وهو أمر يصب في خانة تلبيس الخطاب الروائي بسحر اللغة الصوفية .

وعندما نتجاوز كلمة [كتاب] إلى كلمة [التجليات] المسندة إليها نجد أنفسنا أمام مجموعة من المعاني التي وضعها المتصوفة لهذه الكلمة ، فمصطلح التجلي له أهميته عند رجال التصوف. يعرفه الإمام الغزالي بقوله :(التجلي : هو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب)21 إذن فالتجلي في عرف المتصوفة هو ما ينكشف للصوفي في لحظة المكاشفة ، بينه وبين خالقه .

أما الغيطاني فقد حاول من خلال استعماله لمصطلح [التجلي] أن يؤكد مدى استحضاره لأحوال الصوفي لحظة تعامله مع اللغة ، ولذلك هيمن هذا المصطلح على جزء كبير من النص ، يشد خيوط أحداثه ، ويثير بين جنباته سحر الغموض الصوفي .

أما الشطر الثاني من العنوان : [الأسفار الثلاثة] فالسفر يعني الشيء الكثير لدى المتصوفة ، وعليه فالغيطاني يبني توظيفه للمصطلح الصوفي على المراوغة والإيهام ، فهو يراوغ المتلقي ويذهب به بعيدا حتى يتركه يتوهم بأنه قد قارب عالم الصوفية . فجل العنوان التي استعملها الغيطاني لنص سواء كانت أساسية أو فرعي فهي تتناسل من المرجعية الصوفية . وإذا كنا قد وقفنا على معنى التجلي عند الصوفية فإن الشيخ ابن عربي يوضح لنا معنى السفر . يقول (الأسفار ثلاثة لا رابع لها أثبتها الحق عز وجل وهي سفر من عنده ، وسفر إليه ، وسفر فيه ، وهذا السفر فيه هو سفر التيه والحيرة فمن سافر من عنده فربحه ما وجد وذلك هو ربحه ، ومن سفر فيه لم يربح سوى نفسه ، والسفران الأولان لهما غاية يصلون إليها ويحطون عن رحالهم ، وسفر التيه لا غاية له ، والطريق التي يمشي فيها المسافرون طريقان طريق في البر وطريق في البحر)22 ومن الصدف أن كتاب الأسفار في رسائل ابن عربي مرتب بعد كتاب التجليات . بحيث أن الغيطاني لم يبذل كبير جهد في وضع العنوان لكتابه على ذلك الشكل . والسفر في المفهوم الصوفي له دلالات ومعاني لا تتوافق بالضرورة ، وما هو متعارف عليه بحيث نجد هذا المصطلح يتوزع عندهم إلى معاني ودلالات أخرى لا نجد لها مثيلا في غير المعرفة الصوفية , فهو يعني الشيء الكثير لدى مشايخ

التصوف .و ما يقال عن عنوان الرواية يقال عن العناوين الأساسية والفرعية كـ [المقامات] و [الأحوال] و [المواقف] . فجل العناوين سواء كانت أساسية أم فرعية , تتناسل من المرجعية الصوفية فهي تكشف ظاهريا عن مرجعيتها .

وهكذا نجد أن الإستراتيجية التي بنى عليها الغيطاني عناوينه في هذا الخطاب السردي تقوم على المراوغة والإيهام فهو يضع عناوينه ليراوغ المتلقي ويذهب به بعيدا في عالم المتصوفة , دون أن يفصح عن ذلك السر العظيم الذي يربطه بعالم التصوف .

إن مراهنة الغيطاني على توظيف اللغة الصوفية جعلته ينغرس أكثر في العنونة الصوفية . وهذا الانجذاب الحاصل نحو اللغة الصوفية لا يفسر إلا بمدى سحر جمال تلك اللغة , فهي إن كانت قد سحرت الصوفي واضعها فكيف لا تسحر أديبا مثل الغيطاني يعمل على إيجاد لغة تمكنه من التعبير عن ما يختلج في صدره . فاللغة الصوفية المملوءة بالرموز والإشارات تسري في كل مناحي النص ، وتتجلى في جسده هنا وهناك ، حتى يتوهم المتلقي وكأنه أمام نص صوفي ، وليس نص سردي ، وهو ما يؤكد مدى استفادة الغيطاني من قراءته للتراث الصوفي وخاصة كتابات ابن عربي والنفري وغيرهما من رجال التصوف .

ويمكن للمتلقي أن يستشف ملامح إستراتيجية الغيطاني في بناء نصه من خلال ثلاث محطات :

المحطة الأولى : وتتمثل في استلهامه للأسلوب النثري للشيخ ابن عربي .

فحتى يروض الغيطاني اللغة الصوفية في أعماله السردية راح ينسج على منوال أحد أقطاب الكتابة الصوفية الشيخ ابن عربي , فأسلوب ابن عربي يظهر جليا في كتاب التجليات . يقول الشيخ ابن عربي في كتابه [كتاب الاسرا إلى مقام الأسرى] : (فلم أزل أصحب الرفاق ، وأجوب الآفاق ، وأعمل الركاب ، وأقطع اليباب ، وأمتطي اليعملات ، وتسرى ببساطي الذاريات ، وأركب البحار ، وأخرق الحجب والأستار ، في طلب علة الصورة الشريفة .)23 وعلى شاكلة هذا الأسلوب ينسج الغيطاني قوله :(... بعد طول انتظاري لعل وعسى ، بعد هيهات ، قررت الخوض في بحر البداية ، لم أخشى الغرق ، ولم أرهب الليل ، ، أبحرت وطال إبحاري ، لقطع المسافات في البحر زمن يخالف زمن البر ، فكيف الحال في التجليات ، حيث تتجاوز وتتضفر البدايات والنهايات ، لم أدر كم انقضى عندما تجلت مدينة يغمرها الضوء الهادئ ، يلفها البحر كما يلف البياض صفار البيضة .)24 فالمعروف عن اللغة الصوفية أنها عصية الهضم صعبة التوظيف ولكن رغم ذلك يحاول الغيطاني القبض عليها ، حية مشرقة لكي يعبر بها عن ما يجول في خاطرة . وحتى يستطيع التغلب عليها يواصل النسج على منوال لغة ابن عربي .

يقول الشيخ ابن عربي (قال السالك خرجت من بلاد الأندلس ، أريد بيت المقدس ، وقد اتخذت الإسلام جوادا ، والمجاهدة مهادا ، والتوكل زادا ، وسرت على سواء الطريق ، أبحث عن أهل الوجود والتحقيق ، رجاء أن أتبرز في صدر ذلك الفريق .)25 و يقول الغيطاني (... سريت في النور الأخضر ، وفي زمن

الزهور المرجو ، فرأيت نفسي أخرج من مدينة رباط الجميل عند شاطئ المحيط ، أرحل ، وأعبر الحدود بلا راد أو مانع ، دخلت سيناء الأبدية)26

يقول ابن عربي (فقلت ما وراءك يا عصام ، قال وجود ليس له انصرام ، قلت من أين وضح الراكب قال :من عند رأس الحاجب ، قلت له ما الذي دعاك إلى الخروج ، قال الذي دعاك إلى طلب الولوج ، قلت له أنا طالب مفقود ، قال وأنا داع إلى الوجود)27 ويقول الغيطاني (عندما رنت إلي رئيسة الديوان .. ما وراءك يا جمال ؟ قلت : وجود محدود ، ورغبة في وجود غير محدود . قالت : ما الذي دعاك إلى الخروج ؟ قلت : حيرتي ، وألمي ، ورغبتي في الولوج ..)28 ويواصل الغيطاني مثل هذا الفعل في الصفحات التالية [19 - 37 - 57 - 67 - 69 - 160- 161 - 180 - 238 - 289 - 351 - 359 - 613 - 649 - 655 - 658 - 694 - 695 - 784]

المحطة الثانية : وتتمثل في ابتكاره للسارد المريد بحيث نجد أن سارد الرواية هو مريد للشيخ ابن عربي ، يعمل جاهدا لمحاكاة لغة شيخه ، مما جعل من النص فضاء دسما للغة الإشارة وبواطن الذات والكشف عن أسرارها . و هذا لا يعني أن لغة الغيطاني قد أصبحت رهينة اللغة الصوفية. وإن كان قد بذل جهدا مضاعفا من أجل السيطرة عليها خوفا من انفلاتها منه ، بل نستطيع القول أن لغة الغيطاني لا زالت لم تبلغ تلك الدرجة ، ولكنها قد وسعت من مجالات النص وأعطت للمتلقي مساحة كبيرة من التأمل والتأويل ، وفتحت أفق تلقيه على فضاء التأويل .

المحطة الثالثة : وتتمثل في ذلك الكم من المصطلحات الصوفية المبثوثة في متن النص .

وعلى كل فاللغة الصوفية التي أخذت بلب الغيطاني وأدخلته في عشقها إلى درجة الذوبان ، قد جعلت من نصوصه الإبداعية فضاء تلتقي فيه اللفظة والإشارة الأدبية باللفظة والإشارة الصوفية في توحد يكاد يكون كلي .وذلك خاصية تميز بها الغيطاني .

وأخيرا يمكننا القول أن ما قام به جمال الغيطاني في التجليات هو عمل يدخل في إطار الأعمال التجريبية التي تحاول أن تتجاوز ما هو متداول من التعابير اللغوية ، وتأتي في المقابل بجديد يثير حفيظة المتلقي ، ويدفعه إلى تغيير حركة تعامله مع النص الإبداعي ، وذلك في رأيينا ما كان يريده الغيطاني ، فقد حاول في عمله تطويع لغة التصوف ومصطلحاتها ، لجعلها أداة للتعبير الروائي ، ومهما قيل سيبقى عمله تجربة رائدة في الرواية العربية تدل على مقدرة الروائي العربي في التجريب السردي من جهة ، ومن جهة أخرى تبرهن على مدى استلهامه للموروث الصوفي .

الهوامش :

1 ـ عبد الملك مرتاض تحليل الخطاب السردي ديوان المطبوعات الجامعية 1995 الجزائر ص 223

2 ـ محمود أمين العالم أربعون عاما من النقد التطبيقي التطبيقي دار المستقبل القاهرة ص 149

3 ـ عبد الملك مرتاض في نظرية الرواية ـ عالم المعرفة الكويت ص 131

4 ـ الشيخ ابن عربي فصوص الحكم تح أبو العلا عفيفي- دار الكتاب العربي- بيروت ط80/2 - ص 9

5 ـ عبد المجيد الصغير إشكالية إصلاح الفكر الصوفي دار الآفاق الجديدة المغرب ط1994/2 ص 18

6 ـ الشيخ ابن عربي فصوص الحكم تج / ص 4

7 ـ ناجي حسين جودة المعرفة الصوفية دار الجيل بيروت ط1992/1 ص 169

8 ـ ابن عجيبة إيقاظ الهمم في شرح الحكم ص46

9 ـ أدونيس الصوفية والسوريالية دار الساقي ص 23

10 ـ أدونيس الصوفية والسوريالية دار الساقي ص 174

11 ـ ثناء أنس الوجود قراءات نقدية في القصة المعاصرة دار قباء 2000 القاهرة ص 55

12 ـ ابن عحيبة الفتوحات الإلهية ص 360

13 ـ عبد الكريم القشيري الرسالة القشيرية في علم التصوف تح معروف زريق وعلي أبو الخر دار أبو الخير ط1995/2 ص 53

14. سمير حمدان النص المرصود دراسات في الرواية المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ط1990/1بيروت ص 53/52 .

15 ـ محمود أمين العالم أربعون عاما من النقد التطبيقي ص 148

16 ـ جمال الغيطاني كتاب التجليات الأسفار الثلاثة الهيئة المصرية العامة للكتاب 1997 ص 12

17 ـ جمال الغيطاني كتاب التجليات الأسفار الثلاثة الهيئة المصرية العامة للكتاب ص13

18 ـ ينظر محمود أمين العالم أربعون عاما من النقد التطبيقي 145

19 ـ بلقاسم خالد أدونيس والخطاب الصوفي (البناء والنص) مجلة فصول مج 16 عدد 97/2 ص 62

20 ـ أبو حامد الغزالي كتاب الإملاء في إشكال الإحياء دار المعرفة بيروت ص 16

21 ـ الشيخ ابن عربي كتاب الأسفار عن نتائج الأسفار دائرة المعارف العثمانية ط1948/1 ص 3

22 . الشيخ ابن عربي كتاب الإسفار عن نتائج الأسفار ص 6

23 ـ الشيخ ابن عربي كتاب الإسرا إلى مقام الأسرى ص5
24. جمال الغيطاني كتاب التجليات الأسفار الثلاثة الهيئة المصرية العامة للكتاب ص 30
25 ـ الشيخ ابن عربي كتاب الإسرا إلى مقام الأسرى ـ دائرة المعارف العثمانية ط1948/1 ص 3
26 ـ جمال الغيطاني كتاب التجليات الأسفار الثلاثة الهيئة المصرية العامة للكتاب ص 14
27 ـ الشيخ ابن عربي كتاب الإسرا إلى مقام الأسرى ص 3
28 ـ جمال الغيطاني كتاب التجليات الأسفار الثلاثة ص 37

***